الصراعات المذهبية وأثرها على سقوط بغداد في يد المغول

دة. سارة بنت عبد الله سيف الجميلي العتيبي*

الملخص:

يتعرض المقال إلى ظاهرة الإنقسامات المذهبية وتأثيرها على الوحدة السياسية، حيث شهدها العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط مما أدى إلى تشتيت صفوف المسلمين، وذلك بسبب ظهور الحركة الباطنية وإدعاء أصحابها بأحقيتهم في الإمامة، بعد أن كان المسلمون جميعهم يتجهون في ولائهم إلى الخليفة العباسي في بغداد. وعمل هؤلاء مراراً على إثارة الفتن بين السنة والشيعة في العراق مقر الخلافة العباسية. وكان لهذا الحدث أثره البالغ على التطورات السياسية خاصةً وهو مُحاطً بالأعداء الصليبيين والتتار، مُحدثا ثغرة قوية في جبهتهم استطاع الأعداء النفاذ من خلالها، كما استطاعوا توطيد قوتهم والسيطرة على أجزاء من بلاد المسلمين، وشكلوا فيها مملكات وإمارات.كما أنهم كانوا يمدون يد العون وتتحالف معهم في سبيل القضاء على الخلافة الإسلامية. ويحسن بنا أن نلاحظ أن من الآثار السياسية للحركة الباطنية الفتن السياسية التي قامت بها فأدخل العالم الإسلامي في بلبلة وقلاقل وأضعافه، في مواجهة الضربات المتتالية للأعداء المحيطين بهم، وشكل التتار نهاية لهذا التشرذم المذهبي بسقوط عاصمة العباسيين.

* - أستاذة التاريخ الإسلامي المشارك – كلية الآداب – جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض ، المملكة العربية السعودية.

Abstract:

The article expose the phenomenon of the sectarian divisions and their influence on political unity, as witnessed by the Muslim world during the Middle Ages, which led to the dispersal of their ranks, because of the emergence of an esoteric movement and claiming to their priority in the Imamate, after That Muslims were turning in their loyalty to the Abbasid Caliph in Baghdad.These tried over and over to create a sedition between Sunnis and Shiites in Iraq, the seat of the Abbasid Caliphate. The impaction was a special political developments which is surrounded by enemies, the Crusaders and the Tartars, and that caused a strong gap in their front management which helped theaccess of the enemy force inside of it, so they were able to consolidate their power and control over parts of the Muslim territory. And it improves us to note that the political impact of the esoteric movement and their political strife carried out by the Islamic world, in result they were in confusion and troubles, in the face of successive blows to the enemies around them.

مقدمة:

تعتبر بغداد[1] عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد الدولة العباسية منبع حضارتها العريقة والعظيمة وكان لها ثُقلها السياسي والاجتماعي، وكانت تضم أجناسٌ بشرية مختلفة المذاهب والأهواء ، والتي كان لها تأثيرها المباشر والغير مباشر على مجريات الأحداث في الدولة الإسلامية داخلياً وخارجياً .ولقد كان للانقسام المذهبي الحاصل في العالم الإسلامي أثره الكبير في العاصمة الإسلامية والتي ذاقت ويلات ذلك الانقسام المذهبي، والذي تسبب في تفتت الأمة وانقسامها إلى فرق ومذاهب ولم يكن ذلك ضمن تعاليم الشريعة الإلهية حين نزولها ما يجعل من المسلمين مذاهب وفرق متعددة تخاصم وتكفر

بعضها بعضا كما حصل على مر تاريخنا الإسلامي وإلى اليوم، وإنما كان الأمر الإلهي يجمع المسلمين تحت راية واحدة وأن يدينوا بإسلام واحد :{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}،[2] وقال سبحانه:{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}،[3] وفي الآية الأخرى:{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}،[4] وهذا خبرٌ مُراد به إنشاءُ الأمر كما في آية آل عمران، وإلاّ فقد افترق النَّاس وافترقت الأمَّة، بل قال اللهُ تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}،[5] وقال جل في عُلاه : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، [6] وفي حديث صفوة الخلق ورسولُ اللهﷺأنه قال: (إنَّه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديّين، عضُّوا عليها بالنَّواجذ وإيَّاكم ومُحدَثات الأمور فإنَّ كلَّ بدعة ضلالةٌ) [7].

وتلك الانقسامات المذهبية في العالم الإسلامي أوجدت انقساماً خطيراً في صفوف المسلمين وكان ذلك بسبب ظهور الحركة الباطنية وهذا الانقسام هو الأول من نوعه لادعاء حكام هذه الدولة أنهم من ذرية آل البيت وبأحقيتهم أن يكونوا أئمة المسلمين بعد أن كان المسلمون جميعهم يتجهون في ولائهم إلى الخليفة العباسي في بغداد ، وعملوا مراراً على إثارة الفتن بين السنة والشيعة في العراق مقر الخلافة العباسية. وكان لتفتيت أتباع الباطنية العالم الإسلامي أثر بالغ الخطورة على التطورات السياسية خاصةً وهو مُحاطاً بالأعداء الصليبيين والتتارفتعرض لزعزعة قواه من جانب الباطنية مما أدى إلى إضعاف المسلمين مُحدثاُ ثغرة قوية في جبهتهم استطاع الأعداء النفاذ من خلالها ،كما استطاعوا توطيد قوتهم والسيطرة على أجزاء من بلاد المسلمين وشكلوا لهم فيها مملكات وإمارات.كما أنهمكانوا يمدون يد العون والمساعدة وتتحالف معهم في سبيل القضاء على الخلافة الإسلامية بسبب الحقد الذي

سيطر عليهم مُتناسين أن لا إله إلا الله تجمعهم بغض النظر عن اختلاف المذاهب والأهواء.ويحسن بنا أن نلاحظ أن من الآثار السياسية للحركة الباطنية الفتن السياسية التي قامت بها فأدخل العالم الإسلامي في بلبلة وقلاقل وأضعفت القوة الإسلامية ولم تكن لتستطيع صد الضربات المتتالية للأعداء المحيطين بهم ، ولهذا أصبحت نهبا للأعداء من كل جهة[8] .

كما أن تزعزع القوى الإسلامية بسبب تفرقها إلى مذاهب وأهواء وعدم توحيد كلمتها وانقسامهم إلى سنة وشيعة ، أوجدت كراهية شديدة من قبل الشيعة للسنة مما أدى إلى إحاكة المؤامرات ومحاربة أهل السنة أينما حلَّوا أو ارتحلوا، بل لم يتوان الشيعة من الاستعانة بالأعداء في سبيل تحقيق مخططاتهم البشعة ضد السنة. ولكن لم يكن ليحصلوا على التمكين بعد خيانة المسلمين ، فمن يخون بني جلدته يخون غيرهم . وينقل لنا التاريخ عبرٌ ودروس في هذا المجال.

1- الصراعات المذهبية في بغداد قبيل قدوم المغول

ظهرت آثار الصراعات المذهبية على الساحة السياسية فكانت سبباً رئيساً لطمع الأعداء في بلاد المسلمين ، ولم يكن زمام الأمور في بغداد مركزاً في يد واحدة ، بل كانت هناك سلطات مختلفة ومتعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى، ويتدخل في عملها ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شئون الدولة، بل كان النزاع بينهم مستمراً ، وكل منهم ينقم على الآخر ، ويحيك ضده المؤامرات ، ويسفه رأيه عند الخليفة، وكان الخليفة ضعيف الشخصية لا يستطيع إيقاف تلك الخلافات، فاتسعت شقة الخلاف بين هؤلاء الساسة ، واستحكم العداء بينهم وخاصة بين وزير المستعصم ابن العلقمي -الشيعي- ،[9] وبين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير، [10] والذي

كان يدين بالمذهب السني، وكان كليهما يكيد للآخر عند الخليفة مما كان له الأثر السيئ في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة، لأن تلك التصرفات إنما كانت تصدر عن غاية وهوى[11].

ولابد من الإشارة إلى أنه من الأسباب المباشرة لطمع الأعداء بالبلاد أن الأعمدة الرئيسية لرأس الدولة هي المحرك لتلك المؤشرات الخطيرة والتي تمثلت بدخول التتار إلى العاصمة وإسقاطها[12]، وتمثلت تلك الأعمدة في الوزير ابن العلقمي الوزير الرافضي الذي كان يخطط لإبادة أهل السنة بالقضاء على دولة الخلافة، وإحلال دولة تدين بالمذهب الرافضي، وكان على اتصال مسبق بالتتار ففي سنة 654هـ / 1256م التقى بجواسيس التتار الذين أعطوا عدداً من أمراء بغداد الوعود بالتمكين والسيطرة ، والخليفة منغمساً في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك [13]. ولتنفيذ مؤامرته ومخططاته ضد الخلافة العباسية استغل منصبه الحساس في الدولة، بالإضافة إلى غفلة الخليفة العباسي المستعصم بالله [14]عما يجري منه لثقته به، وتمثلت خيوط مؤامرة العلقميفي مراحل ثلاث أسفرت في النهاية عن سقوط بغداد بيد التتار ومقتل آخر الخلفاء العباسيين ونهاية الخلافة العباسية سنة 656هـ / 1258م ، وأولى تلك المراحل تمثلت في مضايقة الناس ، والعمل على إضعاف أهم جهات الدولة ودعامتها الأساسية والتي عليها ترتكز الدولة وتستشرف مستقبلها وتعتمد عليها في قوتها وضعفها وهي القوة العسكرية ، فقام ابن العلقمي بالسعي في قطع أرزاق الجيش وإسقاط الأسماء من الديوان ، وإضعافهم بالتقليل من عددهم ،كما عمد إلى إسقاط هيبتهم بين الناس، [15] قال ابن كثير: " وكان الوزير ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان ، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل ... فلم يزل يجتهد في تقليلهم ، إلى أن لم يبقى سوى عشرة آلاف... "[16].

أما المرحلة الثانية وهي المرحلة الخطيرة ، والخطوة الجريئة والتي كانت سبباً في ضياع تاريخ وحضارة، وسقوط أمة وانهيار بُنيان والتي تتمثل في القيام بالاتصال المباشر بالتتار ومراسلتهم وتزيين الدخول إلى عاصمة الدولة الإسلامية، مُجملاً لهم تلك الخطوة ، ومثيراً لأطماعهم في خيرات البلاد التي تزخر بها ، وأوضح لهم الوضع السياسي السيئ في البلاد، مبيناً لهم تردي الوضع الداخلي والضعف المسيطر على الأهالي والتفكك الحاصل في البلاد، مُسهلاً عليهم ذلك، " ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال " [17].

ثم تأتي المرحلة التي اعتمدت عليه شخصياً في بث ما يريد بثه في الشارع الإسلامي وتثبيط الخليفة والناس والنهي عن قتال التتار، وتثبيط الخليفة والرعية، ونشر ثقافة المسالمة وعدم المقاومة أو التصدي للعدو القادم ، فنهى العامة عن قتالهم،[18] ويؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على هذه الحقيقة حين قال عن ابن العلقمي: "وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم -أي من الرافضة- فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم - أي التتار- ويكيد أنواعًا من الكيد"، ونشر بينهم نوايا حسنة للتتار ،وقام بإيهام الخليفة وحاشيته أن ملكَ التتار يريد المصالحة ولا يهدف إلى القتال ، مشيراً على الخليفة المثول بين يديه والخروج إليه لتقع المصالحة بين الطرفين،[19] بشروط تتلخص في أن يتقاسم الطرفين خراج العراق فيكونَ نصفه للتتار ، والنصف الآخر للخليفة ، فوافق الخليفة على ذلك، فبعث الخليفة بابنه وولى عهده إلى هولاكو لمفاوضته، فطلب هولاكو منهم إلقاء السلاح وخروج جيش الخليفة بأكمله من بغداد إلى معسكر المغول بدون سلاح،وخرج إلى ملك التتار في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والأمراء والأعيان، وكانلهذه الحيلة

نتائج فادحة أثرت في التاريخ السياسي للمنطقة حيث أسفرت عن مقتل الخليفة ومن كان معه من قادة الأمة وطلائعها بدون أي يبذُل التتار جهوداً في سبيل تحقيق ذلك كما أنهم لم يخسروا شيئاً، فقد حنث هولاكو بوعده وقام بقطع رؤوس عشرات الألوف من الضباط والجنود على مرأى من سكان بغداد وولى العهد المعظم..[20].

وجدير بالذكر أن الوزير ابن العلقمي ومن معه من الروافض والموالين لهأشاروا على هولاكو بعدم المصالحة مع الخليفةوالتي ستكون وقتيه فقط ولن يستفيد منها شيئاً . وقال الوزير ابن العلقمي : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين ، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسنوا له قتل الخليفة، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابنالعلقمي ، ونصيرُ الدينِ الطوسي[21]- وقد كان عند هولاكو قد صحبه وكان في خدمتهُ لما فتح قلاعَ الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية في نهاية عام 654هـ / 1256م -[22] عندما قبض هولاكو على الخليفة قيل له انه لو قتله وأريقت دماءه على الأرض فسيحدث كوارث عظيمة فأمر هولاكو بان يوضع الخليفة في جلد بقر وان يضرب بداخله حتى يموت[23].

ثم اتجه التتار لإكمال فصول ذلك المُخطط القذر، فدخلوا البلد وقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ولم ينج منهم أحدٌ سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي[24]وقد قتلوا من المسلمين ما يقال إنهُ بضعة عشر ألف ألف إنسانٍ أو أكثر أو أقل ، ولم ير في الإسلام ملحمةٌ مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالترِ، وقتلوا الهاشميين، وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين ، فهل يكون موالياً لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسلط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين

؟[25]وقتل الخطباءُ والأئمة، وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجُمعات مدة شهورٍ ببغداد،[26]كان من نتائج تلك الجريمة بعد مقتل الخليفة اتجه فريق من أشقياء التتار لعمل إجرامي بشع، وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة، وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، وجمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون. لقد ألقى التتار بمجهود القرون الماضية في نهر دجلة، "حتى تحول لون مياه نهر دجلة إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، وحتى قيل: إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى".[27]وبعد أن دخل هولاكو بغداد وجد حوض من الذهب الأحمر الخالص في ساحة القصر.. يقول الهمذانى "وقصارى القول أن كل ما كان خلفاء بني العباس قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه فوق بعض فكان كجبل على جبل"[28].

وكانت لابن العلقمي أهدافٌ تحمل معها حقداً دفيناً وكراهيةً شديدة على أهل السنة، أهدافاً يريد تحقيقها ويسعى جاهداً لتنفيذها على أرض الواقع حتى لو تطلب ذلك الاستعانة بالأعداء ضد بني جنسه في سبيل ذلك، وأوضح ذلك ابن كثير بقوله أنه كان يهدف إلى:" أن يزيل السنةَ بالكلية وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يعطل المساجد والمدارس، وأن يبني للرافضة مدرسةً هائلةً ينشرون بها مذهبهم فلم يقدره الله على ذلك، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شهورٍ يسيرةٍ من هذه الحادثةِ، وأتبعه بولدهِ"[29]. فتأمل هذه الحادثةَ الكبرى والخيانة العظمى، واعتبر بطيبة بعضِ أهل السنة إلى حد الغفلة بتقريب أعدى أعدائهم، وعظيم حقد هؤلاء الروافضِ وغلهم على أهل السنة ، فهذا الرافضي كان وزيراً للمستعصم أربع عشرةَ سنة، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة ما لم يحصل لغيره من الوزراءِ ، فلم يجد

هذا التسامح والتقدير في إزالة الحقد والغل الذي يحمله لأهل السنة، وقد كشف متأخرو الرافضة القناعَ عن قلوبهم، وعدوا جريمةَ ابن العلقمي والنصير الطوسي في قتل المسلمين من عظيم مناقبهما عندهم، ممجدين لذلك العمل الذي قاما به وحقق لهم بعضاً مما يخططون له.

وبالرغم من ذلك لا نستطيع إغفال أن من الأسباب التي أدت إلى سيطرة ابن العلقمي على زمام الأمور بالدولة ترجع إلى أن الخليفة كان ليناً سهل الإنقياد ضعيف التدبير ، وقد استغل الوزير الداهية صفات الضعف في الخليفة لينفث سمومه وينفذ مخططاته ، يقول الذهبي: "فأقاموا المستعصم، ثم ركن إلى وزيره ابن العلقمي، فأهلك الحرث والنسل، وحسَّن له جمع الأموال، والاقتصار على بعض العساكر، وقطع الأكثر، فوافقه على ذلك... وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يُطلِعه على الأخبار، وإذا جاءته نصيحة في السر أطلع عليها ابن العلقمي، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً"[30]. وكان يوافي التتار بأخبار المسلمين ويمنع وصول أخبارهم إلى الخليفة المستعصم في محاولة منه لتسهيل مهمة الهجوم التتري وتمهيداً لدخولهم بغداد .

2- دور الصراعات المذهبية في دخول المغول بغداد

كان من سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، وكان بين هؤلاء جميعاً خلافات مستمرة واختلافات دائمة حول المسائل الدينية ، كما كانوا يختلفون أيضاً الميول السياسية ، ولاشك أن ذلك يؤدي إلى كثير من الفتن والمنازعات بين السكان، ففي أواخر عهد المستعصم نشب قتال بين الشيعة وأهل السنة فعهد الخليفة إلى ابنه مهمة فض النزاع بين الطرفين ، فقام تنفيذاً لذلك بالإغارة على مقر الشيعة في الكرخ[31]، مرتكباً الكثير من الفظائع، فقام بسفك الدماء وقتل الرجال وسبي النساء، ونهبت

دور قرابات الوزير ابن العلقمي ، وكان لذلك تأثيراً سيئاً في نفوس الشيعة ، فنقموا على المستعصم وابنه. وأثار ذلك الحادث كوامن الأحقاد الدفينة على الدولة العباسية وتمنوا القضاء عليها والتعجيل بزوالها، وقد تألم ابن العلقمي واشتد حنقه وهو من كبار الشيعة لوقوع مثل هذا الحادث لمن هم على مذهبه، فنسي هنا أن رباط الإسلام أقوى من اختلاف المذهب ودبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد إلى وقتنا الحاضر، ولجأ إلى الأعداء للتدخل بينهم والهجوم على السنة وبالتالي القضاء عليهم، فكاتب التتار وأطمعهم في دخول بغداد والسيطرة عليها من أوائل من برز إليهم فخرج بنفسه وبأهله وأصحابه وخدمة، ضارباً عرض الحائط رابط الدين الإسلامي الذي يربطه بأهل السنة في بغداد[32].

كما أن الوزير ابن العلقمي في قمة محنة المسلمين وحربهم ضد التتار ومقاومتهم لهم لم يتورع عن إصدار أوامره بفتح سد كان مقاماً على نهر يقع خارج بغداد مما لأدى على غرق الكثير من جيش الخليفة، وشملت الخيانة ايضاً سكان الكرخ الشيعة الذين اتصلوا سراً بالعدو وابداء استعدادهم للتعاون معه، " وكان هولاكو قد نظم عمليات الحصار وحركاته أفضل تنظيم في خارج المدينة، وازدادت هذه قوة ، وتفاقم خطرها بما حصل من الخيانة في داخل أسوار بغداد، وذلك لأن سكان الكرخ والمحلة التي حول مشهد الإمام موسى في الكاظمية، كانوا من الشيعة، وهم يكرهون الخليفة السني، الأمر الذي دفعهم إلى الاتصال سراً بالعدو الكافر"[33]. وما قام به ابن العلقمي وبتأييد من النصير الطوسي من خطوة جريئة تعتبر دليلاً قاطعاُ على مدى الحقد الذي يكُنه الروافض لأهل السنة، ولقد أشاد كتابهم المعاصرين والمتأخرين بذلك، الخوانساري من قبله في قولهِ في ترجمةِ النصيرِ الطوسي: " ومن جملة أمره المشهور المعروفِ المنقولِ حكايةً استيزاره للسلطانِ المحتشمِ ..

هولاكو خان.. ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاحِ البلاد .. بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام، إلى أن أسالَ من دمائهم الأقذار كأمثالِ الأنهار ، فانهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار"[34]. فهم يعدون تدبيرهُ لإيقاعِ القتلِ العامِ بالمسلمين، من أعظمِ مناقبهِ ، وهذا القتلُ هو الطريقُ عندهم لإرشادِ العبادِ وإصلاحِ البلادِ، ويرون مصيرَ المسلمين الذي استشهدوا في هذهِ " الكارثة " إلى النارِ، ومعنى هذا أن هولاكو الوثني وهو الذي يصفه بالمؤيدِ، وجنده هم عندهم من أصحابِ الجنةِ ؛ لأنهم شفوا غيظ هؤلاء الروافضِ من المسلمين، فانظر إلى عظيمِ هذا الحقدِ !! حتى صار قتلُ المسلمين من أغلى أمانيهم.. وصار الكفارُ عندهم أقربَ إليهم من أمةِ الإسلامِ .

ومن المهم بمكان الإشارة إلى أن ظهور المذاهب المختلفة في الدولة الإسلامية وتعدد الآراء فيها، وبروز الأحزاب المختلفة، واختلاف الأهواء بين المسلمين يعد سبباً رئيسياً لسقوط أمم وضياع تاريخ وانهيار حضارة، فتوجه الأعداء لبلاد تعاني من التحزب واختلاف الأهواء وتعدد المذاهب يعني نتيجة حتمية لا يختلف عليها اثنان.فقد يلجأ أحد الأطراف إلى مؤازرة العدو في سبيل القضاء على خصمه والتفوق عليه، وقد يكون مؤملاً الحصول على مركز مرموق في البلاد مكافأة له لمساعداته ولكن الخائن لبلاده وبني جلدته لن يتوانى عن خيانة عدوه أيضاً مهما بلغت الثقة به، وكذا ابن العلقمي لم يكن يصل إلى مُبتغاه من سيطرة وسطوه بل كان ما تعرض له سبباً في كتابة آخر فصول حياته.

أصدر ملك التتار هولاكو قرارًا بأن يُعيَّن مؤيَّد الدين العَلْقمي الشيعي حاكمًا من قِبل التتار على بغداد، على أن توضع عليه -بلا شك- وصاية تترية، ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية

للتتار.ولم يتوقف منصبه الجديد عند حد كونه حاكمًا صوريًّا، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك، ووصل إلى الإهانة المباشرة له،والتي كان يتعرض لها من صغار الجند في جيش التتار؛ وكان الهدف من ذلك العمل على تحطيم نفسيته، فلا يشعر بقوته، ويظل تابعًا للتتار.ويروي السبكي -رحمه الله- طرفًا من تلك الإهانات فيقول: "وأما الوزير -أي ابن العلقمي- فإنه لم يحصل على ما أمَّل وصار عندهم أخس من الذُّباب، وندم حيث لا ينفعه الندم، ويحكي أنه طُلِب منه يومًا شعير، فركب الفرس بنفسه ومضى ليُحصِّله لهم، وهذا يشتمه وهذا يأخذه بيده، وهذا يصفعه بعد أن كانت السلاطين تأتي فتُقبِّل عتبة داره، والعساكر تمشي في خدمته حيث سار من ليله ونهاره.وإذا بامرأة تراه من طاقٍ، فقالت له: (يا ابن العلقمي، هكذا كنت تركب في أيام أمير المؤمنين)! فخجل وسكت، وقد مات غَبنًا بعد أشهر يسيرة، ومضى إلى دار مقبرة ووجد ما عمل حاضرًا"[35]. ومات بعد شهور قليلة جدًّا من نفس السنة التي دخل فيها التتار بغداد، سنة 656هـ/ 1258م، ولم يستمتع بحكم ولا ملك ولا خيانة، وليكون عِبْرة بعد ذلك لكل خائن.

الخاتمة:

وما يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن المصائب والمحن التي تمر على الأمة يجب أن يشترك الجميع مهما اختلفت أهواءهم ورغباتهم، وحتى مذاهبهم الدينية، في التصدي لها والقضاء عليها، وفي التاريخ مواعظ وعبر.ولا يختلف اثنان على أن الافتراق والتحزب سيكون مصيره إلى هلاك وضياع ، فعدم اتحاد الهدف وتفرق الكلمة يؤدي إلى يتكالب الأعداء على الأمة وتوالي المصائب عليها .وفي نهاية هذا البحث نخلص إلى عدة نقاط لا مجال للشك فيها وهي:

- في التاريخ دروس وعبر لابد من الجميع تذاكرها وتدارسها ففيها استشرافً للحاضر وتخطيطاً للمستقبل.
- اختلاف الهدف وتفرق الكلمة يؤدي للضعف وبالتالي تصبح هدفاً سهلاً وغنيمةٌ ثمينة للأعداء .
- إذا ما تحقق الاجتماع في الأمة وترك أفرادها التحزب والافتراق بُنيت أسوار ضخمة أما العدو وتتحداه بقوة أفرادها.
- الواجب الشرعي والمطلب الوطني الذي على أكتاف أبناء الأمة ترك التحزب والافتراق وتحقيق مبدأ الاجتماع.
- مهما بلغ الاختلاف بين أفراد الأمة لابد من عدم إدخال طرفً ثالث في النزاع فقد يزيد من اتساع الشقة .
- الاستعانة بالأعداء مهما بلغ من قربً وصحبة ضد البعض لن يصل من خلاله إلى هدفه المأمول بل سيؤدي إلى حياة ذُل ثم زوال نعم.

الملاحق

الملحق (1) المصدر: http://islamstory.com/ar

الملحق (2) المصدر: http://islamstory.com/ar

الهوامش:

1- بغداد : اختطها أبو العباس السفاح سنة 145هـ / 762م، ونزلها سنة 149هـ / 766م ، لأنه خشي أن يفسد أهل الكوفة جنده ، مصرها الخليفة أبو جعفر المنصور وجعلها مدينة، وانتقل إليها من الهاشمية ، تمتاز بطيب هواءها ووفرة الغذاء فيها . الحموي : الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، ط1، 1993م ، ج1 ، ص 456، 455 .

2- القرآن الكريم ، سورة آل عمران، الآية 103 .

3- القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ، الآية 92 .

4- القرآن الكريم ، سورة المؤمنون ، الآية 52 .

5- القرآن الكريم ، سورة المائدة، الآية 48 ، سورة النحل، الآية 93 .

6- القرآن الكريم ، سورة هود ، الآية 118.

7- ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني (ت 728هـ / 1327م)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تحقيبق ناصربن عبدالكريم العقل ، مكتبة الرشد ، الرياض، ط8، 1421هـ ، 2/ 83 ، زكي الدين عبدالعظيم المنذري ، الترغيب والترهيب، تحقيق محمد السيد، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط1، 1421هـ، ج1، ص 160 .

8- شلبي ، أحمد ، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، 1999م ، ج2، ص 189، 190، الخطيب ، محمد أحمد ، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، مكتبة الأقصى، عمان 1406هـ / 1986م ، ص 445 ، رانسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر للطباعة والنشر، 2006م، ج2، ص 33 ، http://www.dorar.net/enc/firq/3025

9- أبو طالب محمد بن أحمد بن علي، مؤيَّد الدين الأسدي البغدادي الرافضي المعروف بابن العلقمي (593-656هـ/ 1197-1258م)،اشتغل في صباه بالأدب، ووثق به المستعصم فألقى إليه زمام أموره، وكان حازمًا خبيرًا بسياسة الملك، كاتبًا فصيح الإنشاء. شغل منصب أستاذ الدار أو الأستاذ دارية عام 629هـ، و هو من المناصب الإدارية التي استحدثها

العباسيون في منتصف القرن الرابع الهجري، وصاحبها مسئول عن رعاية دار الخلافة العباسية وصيانتها، وتوفير ما يلزم ساكنيها من أسرة الخليفة. وفي مطلع القرن السادس الهجري ازداد أهمية وأصبح لمن يشغلها القرار بتنصيب الخليفة أو عزله، وترشيح المقربين لتولي المناصب العليا. تولى الوزارة للخليفة المستعصم سنة 642هـ / 1244م، وصف بالمشئوم ولم يكن وزير صدق ولا مرضي الطريقة ،توفي بعد سقوط بغداد بثلاثة أشهر. ابن كثير، البداية والنهاية ، ج13، 192، الذهبي : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ / 1347م)، سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، ط11 ، 1419هـ / 1998م ، ج23، ص 162، الزركلي : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين المستشرقين ، دار العلم للملايين ،بيروت ، لبنان ، ط10، أيلول –سبتمبر، 1992م ، ج4، ص 248 ، د.محمد بن عبدالله القدحات، منصب أستاذ الدار في الخلافة العباسية مابين 352 – 656هـ ، مجلة جامعة الملك خالد، الجلد الرابع ، العدد السابع ، 1427هـ ، ص 119.

10- مجاهد الدين أيبك: الملك مقدم جيش العراق مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير . أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين الذي كان يقول : لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم لقهرت التتار ولشغلتهولاكو بنفسه . كان يحب الكيمياء ، خصص بيت كبير في داره فيها عدة من الصناع والفضلاء لعمل الكيمياء ، تزوج ببنت بدر الدين صاحب الموصل .ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 202 ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج23،ص371 .

11- ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 202 ، د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية، بيروت، (ب،ط) ، (ب، ت) ، ج1، ص253، 254 .

12- ظهرت دولة التتار في سنة 603 هـ/ 1206م ، وكان ظهورها الأول في "منغوليا" في شمال الصين، وأول زعمائها هو "جنكيزخان"،وجنكيزخان تعني: قاهر العالم، أو ملك ملوك العالم، أو القوي، واسمه الأصلي "تيموجين"،وكان قائدًا عسكريًّا شديد البأس وسفاكًا للدماء، وكانت له القدرة على تجميع الناس حوله.اتسعت مملكته حتى بلغت حدودها من كوريا شرقًا إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غربًا، ومن سهول سيبريا شمالًا إلى بحر الصين جنوبًا. ويطلق اسم التتار -وكذلك المغول- على الأقوام الذين نشئوا في شمال الصين في صحراء "جوبي"، وإن كان التتار هم أصل القبائل بهذه المنطقة،ومن التتار

جاءت قبائل أخرى مثل قبيلة "المغول"، وقبائل "الترك" و"السلاجقة" وغيرها، وكانوا يسكنون الجبال المكسوة بالغابات، وعندما سيطر المغول على هذه المنطقة أطلق اسم "المغول" على هذه القبائل كلها.وكان للتتار ديانة عجيبة، هي خليط من أديان مختلفة.،فقد جمع جنكيزخان بعض الشرائع من الإسلام والبعض من المسيحية، والبعض من البوذية، وأضاف من عنده شرائع أخرى، وأخرج لهم في النهاية كتابًا جعله كالدستور للتتار وسمى هذا الكتاب بـ "الياسك" أو "الياسة" أو"الياسق". ابن كثير :إسماعيل بن عمر (ت 774هـ / 1372م)، البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، دار عالم الكتب، 1424هـ / 2003م، ج13، ص ص 198،203 ، الموسوعة العربية الميسرة ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر، 1407هـ / 1987م، ج2، ص 1727 حمد الله المستوفي القزويني ، تاريخ گزيدة ، نشر الدكتور عبدالمحسن نوائي ، طهران ، 1336- 1339هـ . ش، ص564 ، Grousset: Rene. L,Empire des Steppes, Paris, 1936, P.249.

13- المقريزي : أحمد بن علي بن عبدالقادر العبيد المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، 1418هـ ، 1997 م ، ج 1، ق2 ، ص 400 .

14- المستعصم بالله: آخر خلفاء بني العباس ولد سنة 640هـ / 1242م، كان سهل العريكة ،رجلاً متديناً لين الجانب ، كان مستضعف الرأي ، ليس له هيبة في النفوس ، منشغلاً بسماع الغاني والطرب، ومتكلاً على غيره كان مهملاً لأمر الدولة ، توفي سنة 656هـ / 1258م. ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 202 ، الذهبي ، تاريخ الإسلام، ج11، ص177 ،ابن طباطبا :محمد بن علي المعروف باسم ابن الطقطقي (ولد 660هـ / 12661م) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط2، القاهرة، 1357هـ / 1938م، ص220 .

15- ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 201، 202، الذهبي : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ / 1347م)، العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1405هـ / 1985م ، ج11، ص 177 ، ابن الساعي : الإمام الفقية علي بن أنجب (ت 674هـ / 1275م) ، مختصر أخبار الخلفاء ، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ط1، 1209م، 136،137 .

16- البداية والنهاية، ج13، ص 201 ، الكتبي : محمد بن أحمد بن عبدالرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر(ت764هـ / 1362م)، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، (ب، ط) ، (ب، ت) ، ج2، ص 313 .

17- ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 202 .

18- الذهبي ،العبر في خبر من غبر ، ج11 ، ص178، ابن تيمية : أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني ، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، مكتبة ابن تيمية ، 1406هـ/ 1986م، ج3، ص 38

19- ابن كثير ، البداية والنهاية، ج13، ص 202 ، السيوطي : عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد، جلال الدين (ت 911هـ/ 1505م) ، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 1425هـ / 2004م ، ج1، ص 403 ، الجوزجاني : أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين(ت 698هـ / 1298م)، طبقات ناصري ،ألف في الفترة مابين 657 – 658هـ، نشر وليم ناسوليس ومولوي عبدالحي، كلكته، 1864م ، ص ص 424، 428 .

20- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13، ص 203 ، ابن تيمية ، منهاج السنة ، ج5، ص 155 ، العينى: بدر الدين محمدود العيني (ت 855هـ / 1451م) ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1409هـ ، 1989م ، ج1، ص175، د.حافظ أحمد حمدي ، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي ،القاهرة ، ط1، 1420هـ / 2000م ، ص 138 ، Bretschneider : Mediaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, vol. I, p118 .

21- نصير الدين الطوسي: أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي ولد سنة 597هـ/ 1201 م ، توفي سنة 673هـ / 1274 م، ولد في طوس . وهي ناحية في منطقة خراسان في شمالي شرق إيران . ، وكان والده من الفقهاء والمحدّثين، فتربّى في حجره ونشأ على يده. والطوسي المفلكي وبيولوجي وكيميائي ورياضياتي وفيلسوف وطبب وفيزيائي ومتكلّم ومرجع شيعيفارسي. كان ينتمي إلى طائفة الإسماعيلية، وبعد ذلك اعتقد في مذهب الإثنا عشرية. يعتبر من أعظم علماء الفرس.ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1984م، ج10، ص 112، 113 ،

حسن الأمين ، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي ، الغدير للدراسات والنشر، ط3 ، 2005م ، ص ٥٤ ،http://ar.wikipedia.org

22- ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص 201 ، حافظ حمدي ، الشرق الإسلامي، ص 138 . Bretschneider : Mediaeval Researches vol. I, p118

23- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، ص 202، 203 ، الهمداني : رشيد الدين فضل الله الهمداني -،جامع التواريخ (تاريخ هولاكو خان) ، دار الكتاب، القاهرة ، 1960م ، ج 2، ص 291، 292 .

24- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج13 ، ص 202، 203 ، الكتبي ، فوات الوفيات ج2، ص 313 .

25- ابن تيمية، منهاج السنة ، ج3 ، ص 38 .

26- ابن كثير، البداية والنهاية ، ج13 ، ص 203 .

27- البداية والنهاية ، ج13 ، ص 202، 203 ، العيني، عقد الجمان، ج1، ص175د. مصطفى طه بدر ، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على يد المغول ، الهيئة المصرية الكبرى ، القاهرة ، 1999م، ص 177، 178 . يكفي في التعبيرعن بشاعة ذلك العدوان، ما قاله الواعظ محمد بن عبيد الله الكوفي وقد شاهد تلك المأساة: إن ترد عبرة فتلك بنو العباس حلت عليهم الآفات استبيح الحريم إذ قتل الأحياء منهم وأحرق الأموات.

28- البداية والنهاية ، ج13 ، ص 202، 203 ، الهمداني ، جامع التواريخ ،ج 2، ص 291، 292 .

29- البداية والنهاية ، ج13 ، ص 202، 203 .

30- الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج11، ص 177 .

31- الكرخ : كانت في البداية وسط بغداد وما حولها، ثم أصبحت منفردة ،وتمثل أحد قسمي مدينة بغداد على الجانب الغربي لنهر دجلة. ويوجد فيها العديد من المناطق الحيوية لبغداد ومنها المنصور والكاظمية والصالحية وشارع حيفا والعامرية. أما القسم الثاني فهو الرصافة على الجانب الشرقي للنهر وفي كلا الجزأين نجد المباني الحديثة وعلى

جانب آخر الشوارع الضيقة والمحلات القديمة . الحموي ، معجم البلدان ، ج4، ص 448 .

32- أبو الفداء: إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب(ت732هـ / 1331م) ، المختصر في أخبار البشر ،المطبعة الحسينية ، مصر، 1325هـ، ج3، ص 202 ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء، ص 465 .

33- الجوزجاني ، طبقات ناصري ، ص 427 ، لسترانج: ج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشر يوسف فرنسيس ،بغدا د، ط1، 1355هـ ، 1936م ، ص 292 .

34- الخوانساري : الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري الاصبهاني روضات الجنات في احوال العلماء والسادات، الدار الإسلامية، ط1، 1991م ، ج6، ص 300 ، 301 .

35- تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت 771هـ / 1369م) ،طبقات الشافعية الكبرى ،تحقيق محمود محمد الصناجي وفيصل عيسى الباني ، (ب،ط) ، (ب، ت)، ج8 ، ص 159 ، http://islamstory.com/ar